

" القابلية للاستعمار " و " الاستعمار "

مقاربة لغوية نقدية

د. مرزوقي بدر الدين *

تاريخ النشر: 01/ جوان 2018	تاريخ الإرسال: 12 مارس 2017
----------------------------	-----------------------------

ملخص:

إبان الفترة الاستعمارية كانت الشعوب العربية والدين الاسلامي موضوع أبحاث ودراسات سوسيولوجية، إثنولوجية، أنثروبولوجية سياسية، اجتماعية ، ثقافية، اقتصادية ودينية على يد طائفة من العلماء والإرساليات التبشيرية السائرة في ركاب الجيو"الاستعمارية". على ضوء النتائج التي توصلت إليها تلك الأبحاث تقرر إنزال رتبة العرب والمسلمين في سلم القيم ومدونة مراتب الشعوب فمثلا كلمة " كولونياليزم " ومشتقاتها اللغوية كما وردت في بعض أبرز القواميس و المعاجم الغربية، تشكل دليلا واضحا على التلاعبات الإيديولوجية والمفارقات اللغوية المسجلة في بعض أبرز قواميس الترجمة العربية مقارنة مع بعض المصادر العربية والإسلامية الموثوقة.

الكلمات المفتاحية: " استعمار"، " القابلية للاستعمار"، هيمنة ، إيديولوجيا، إيديولوجيا إسلامية، ثقافة إسلامية.

* - أستاذ محاضر "أ"، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران 1.

مقدمة

لقد لعبت الاكتشافات الجغرافية أو بكلمة أدق، الجغرافيا السياسية والعسكرية دورا حيويا في عملية تجسيد الأطماع الغربية في الأقاليم غير الأوروبية، وهذا ليس فقط في حروبها الاستيطانية، أي في ترشيد مختلف العمليات العسكرية، بل وأيضا في عملية التعرف على تضاريس وعادات سكان تلك الأقاليم البعيدة بغية تكييف استراتيجيات وسياسات ثقافية بهدف ضبط وتوجيه فعال لسكان الأقاليم الخاضعة أو تلك التي ستخضع للسلطة المركزية إن أجلا أم عاجلا. وفي هذا السياق الأيديولوجي سيظل التوسع العسكري مرتبط بشكل دائم بتسويق مفاهيم عنصرية، ظاهرة أو مبطن، مشروطة بسياقات تاريخية معينة. ففي تاريخنا الحديث اشتهرت -على سبيل المثال لا الحصر- كلا من الأمبراطورية الإسبانية والبرتغالية والفرنسية بتوسعاتهم الاستيطانية المباشرة للأقاليم غير الأوروبية، هذا في حين عرفت بريطانيا العظمى بتوسعاتها الاستيطانية غير المباشرة زاعمة أن هذا النمط الأخير أقل ضررا وتعسفا من الأول نتيجة اكتشاف منظري "التوسع الاستيطاني في الغرب بعض الاختلافات الأيديولوجية على مستوى المذاهب الاستيطانية (Les doctrines coloniales)، بل وراحت مختلف الاشتقاقات اللغوية الواردة في بعض أبرز القواميس والمعاجم الغربية في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية الحديثة والمعاصرة رغم تباين مقارباتها العلمية والمعرفية تجمع على أن مصطلح "كولونياليزم" (Colonialisme) ومشتقاته اللغوية، سواء بالمعنى الفرنسي أو الإنكليزي (Colonialism) أو الإسباني (Colonialismo) يفيد معنى الهيمنة السياسية والاستغلال الاقتصادي والتبشير الديني للشعوب غير الأوروبية مع تبرير مشروعية كل ذلك في المكان والزمان. هذا في حين أن معظم الترجمات المعجمية العربية الحديثة للمصطلح الأجنبي - باستثناء بعض الترجمات الماركسية - ظلت بعيدة كل البعد عن المعنى الأصلي الأجنبي، وهنا تكمن المفارقة اللغوية في الترجمة المعجمية العربية الحديثة ومن ثم تصبح الإشكالية الرئيسة المطروحة في هذا السياق الاستيمولوجي كالتالي: كيف تعاطت بعض أبرز القواميس و المعاجم الأجنبية الحديثة مع هذا المفهوم الأيديولوجي، وكيف تجلت مفارقات الترجمات المعجمية العربية الحديثة بالمقارنة مع بعض المصادر العربية والإسلامية على مستوى التأصيل المنهجي والأيديولوجي؟

المبحث الأول: التصور السيكلولوجي لمفهوم "القابلية للاستعمار": هذا مصطلح ابتكره واستخدمه للمرة الأولى المفكر مالك بن نبي في كتابه شروط ا: لنهضة الصادر في الجزائر عام 1948م وهو مصطلح لا يخلو من تعقيد كون الأبعاد الثقافية والحضارية تتداخل فيما بينها ضمن هذا الإطار الفكري والأيديولوجي الذي تنتجه وتعيد إنتاجه مختلف الدلالات المادية والمعنوية. يوضح المفكر مالك بن نبي أننا عندما نحلل مفهوم الاستعمار- باعتباره ظاهرة تاريخية - يجب أن نميز من الناحية المنهجية بين ظاهرتين ذات بعد سوسيولوجي سياسي هما: وجود بلد مغزو (envahi)، وبلد "مستعمر" (colonisé) حيث تعكس الحالة الأولى وجود تركيب سابق للإنسان والتراب والوقت (أسباب المقاومة الكامنة)، وهو يستتبع فردا غير قابل للاستعمار. أما في الحالة الأخرى (مستعمر) فإن جميع الظروف الاجتماعية التي تحيط بالفرد تدل على

قابليته للاستعمار، وفي هذه الحالة يصبح الاحتلال الأجنبي "استعماراً"، أي قدراً محتوماً. إن روما -على سبيل المثال لا الحصر - لم تستعمر اليونان ولكنها غزتها، وإنكلترا التي استعمرت أربعاً مئة مليون من الهنود إذ كانت لهم القابلية، لم تستعمر أيرلندا الخاضعة دونما استسلام (حرب العصابات المنظمة)، وفي مقابل ذلك نجد اليمن التي لم تفقد استقلالها لحظة ولم تكسب من ذلك الاستقلال أدنى استحقاق لأن جل شعبه كان يختزن في نفسه "معامل القابلية للاستعمار"، أعني أنه كان في وضعية نفسية عاجزة عن القيام بأي جهد اجتماعي ثوري (الفعالية). إذن كون المسلم غير حائز على جميع الوسائل التي يريدها لتنمية شخصيته وتحقيق مواهبه ذلك هو "الاستعمار"، وأما ألا يفكر المسلم في استخدام ما تحت يده من وسائل مؤثرة أو في بدل أقصى الجهد ليرفع من مستوى حياته حتى بالوسائل العارضة، وألا يستثمر وقته في تحقيق هذا الهدف فتستسلم قواه النفسية والعقلية لتصبح كما مهملاً يكفل نجاح الدعاية الاستعمارية (غسل الأدمغة) فتلك هي "القابلية للاستعمار"¹.

في الواقع، لقد استخلص المفكر مالك بن نبي أن المرحلة أو المراحل التاريخية (بعض المراحل) التي سبقت عهد "الاستعمار" الفرنسي للجزائر ما هي إلا تفاعلاً متسلسلاً للروح الانهزامية التي أصبح يتمثلها ويعيد إنتاجها "إنسان ما بعد الحضارة" أو "إنسان ما بعد الموحدين" بالمصطلح البنابي (نسبة إلى مالك بن نبي) وعلى أكثر من صعيد.

لقد تكفلت "النزعة المرباطية" - حسب بن نبي - بإحداث القطيعة الحضارية على مستوى الوعي التاريخي عن طريق اللجوء إلى السحر والشعوذة والدجل والغلو الديني والمذهبي على حساب التفكير والتدبر في أسباب تخلفه الثقافي والحضاري نتيجة "النزعة المرباطية" المشحونة بتلك العلل والانحرافات الرامية إلى الحفاظ على مكاسبها المادية والمعنوية في المكان الزمان، وعلى أكثر من صعيد. ثم جاء العهد الاستعماري (التدخل الأجنبي السافر) ليضاعف ويعقد أكثر فأكثر من أبعاد هذه الأزمة الثقافية والحضارية عبر استخدام مختلف الاستراتيجيات العلمية والمعرفية لإعادة إنتاج التخلف (اللافعالية) في المكان والزمان. لكن رغم ذلك تمكن الشعب الجزائري في وقت من الأوقات عن طريق الكفاح المسلح (الثورة التحريرية المباركة) ولو بعد حين، وهو استثناء تاريخي، من أن يخرج إلى حد ما من تلك المرحلة التي اصطلح على تسميتها في الفكر البنابي بمرحلة "إنسان ما بعد الموحدين" (L'homme Post-Almohidien)².

المبحث الثاني: التصور الإيديولوجي لمفهوم "الاستعمار": لقد ورد مفهوم كلمة « استعمار » (colonisation) في معجم « لاروس » الفرنسي لعام 1980 على النحو التالي: " اسم مذكر، يفيد وجود مذهب، يحاول إضفاء الشرعية لهيمنة سياسية واقتصادية على رقعة جغرافية أو وطن من خلال حكومة دولة أجنبية"³. وجاءت في "قاموس السياسة" الفرنسي الصادر في نهاية السبعينيات من القرن المنصرم بما يفيد: "عملية ونتيجة تتمظهر في استيلاء على سيادة إقليم يؤدي إلى خلق تبعية للمحتل على الصعيد السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي والثقافي"⁴.

كما وردت نفس الكلمة بالمفهوم الإنجليزي (Colonialism) في الموسوعة البريطانية الجديدة (The New Encyclopaedia Britannica) في طبعتها الخامسة عشر من عام 1983 بما يفيد: "مجموع السياسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي حكمت بواسطتها الدول الأوروبية الشعوب غير الأوروبية، و ذلك منذ 1500 عام وبداية الكشف الجغرافية، وقد أطلق هذا المفهوم على عمليات الاكتشاف والغزو والاستيطان في هذه الدول وتم بواسطة هذه السياسات نشر المؤسسات والثقافة الأوروبية"⁵.

المبحث الثالث: التأصيل الإسلامي لمفهوم "الاستعمار": عندما تم تعريب هذه الكلمة ترجمت إلى « استعمار » التي هي بعيدة كل البعد عن معناها الأصلي (الأجنبي)، بل وعلى نقيض ذلك كله. فإذا كانت كلمة "كولونياليزم" الفرنسية أو الإنكليزية، تعني ما تعني، فإن كلمة « استعمار » وردت بمشتقاتها في بعض أبرز المصادر والمراجع العربية سواء القديمة منها أو الحديثة كالتالي: "عمر [عمر - عمرا] المنزل بأهله، أي كان مسكونا. عمر المنزل: سكنه فهو [معمور]. عمر الدار: بناها والإسم [العمارة]. عمر بالمكان: أقام. عمره الله: أبقاه. [عمر الله منزله: جعله عامرا أهلا. [عمر - عمورا وعمارة وعمرانا] الرجل بيته: لزمه. [عمر، عمرا وعمارة] ربه: عبده، أي صلى و صام. [عمر عمرا وعمرا وعمارة و عمر - عمرا وعمرا وعمارة] عاش زمنا طويلا. [عمر وعمر وعمر - عمارة] المال: صار عامرا، أي كثيرا وافرا. [عمر وأعمر] المنزل: جعله أهلا: عمره «أعمره أرضا». جعلها له طول عمره.

---الرجل: عاش زمنا طويلا.----ه الله: أبقاه.---الثوب: أجاد نسجه أو غزله. «أعمره المكان»: جعله يعمره. «أعمر الأرض»: وجدها عامرة. «أعمر عليه»: أغناه. [إعتمر] المكان: قصده، زاره.---الرجل: تعمم بالعمامة. [إستعمره] في المكان: جعله يعمره..."⁶. كما تفيد معنى العبادة، فقد حكى ابن الأعرابي: "عمر (بالشدة المفتوحة على الميم) عبده، وإنه لعامر لربه، أي عابد. حكى اللحياني عن الكسائي: تركته يعمر ربه، أي يعبده: يصلي و يصوم⁷. وقد جاءت بنفس المعنى في تاج العروس للزبيدي، وأساس البلاغة للزمخشري، والقاموس المحيط للفيروز آبادي. كما ورد اللفظ في القرآن الكريم مرة بما يفيد "استعمار الأرض" كما في قوله تعالى: ((قال يا قوم أعبدوا الله مالمكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب)).⁸ ومرة بما يفيد عمارة الأرض أو المساجد كما في قوله تعالى: ((أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)).⁹ وفي قوله تعالى: ((إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله)).¹⁰ ومن ثم يتبين أن لفظ "الاستعمار" أو "الإعمار" في المدلول القرآني تفيد طلب العمارة، والطلب من الله على سبيل الوجوب، أي الفرض باعتبار أن مفهوم "الاستعمار" يعكس جوهر حقيقة الإستخلاف (ماهية الاستخلاف) والمتمثل في ربط "العمارة الحسية" ب "العمارة الروحية" كون المقصد العام للشرعية الإسلامية هو تزكية النفس

وعمارة الأرض وإصلاحها بما يحقق العبودية لله سبحانه وتعالى وبهذا يتجلى الاتساق الإعجازي بين الفعل البشري والمقصد الإلهي من خلق الكون¹¹.

يتضح إذن أن كلمة « استعمار » في تراثنا العربي والإسلامي مفهوم يحمل دلالات الخير والنماء والتزكية والعبادة . في حين يظل إختيار كلمة « استعمار » كترجمة للكلمة الأجنبية "colonialism(e)" لا يخرج عن كونه عملية تشويه ثقافية وحضارية قد تكون مقصودة لبعض المفاهيم العربية والقرآنية بالأخص و التي يستهدف من ورائها تلبسها وتفريغها من مضامينها الأصلية ولوبعد حين، مما سيسمح للمتأمرين في الداخل والخارج من نشر نوع من « الإستعمار » في ذهنية بعض العرب والمسلمين، خاصة أولئك "المعقدين" من الثقافة والحضارة الإسلامية الذين يظنون أن هناك " محاسن " مادية ومعنوية متعددة " للإستعمار الغربي " (les bienfaits du colonialisme occidentale) في إطار "الرسالة التحضيرية للغرب" (la mission civilisatrice de l'occident) المنوطة به تجاه البرابرة ، أي الشعوب غير الأوروبية¹².

أمام هذا التشويه الثقافي والحضاري اجتهد بعض أبرز المفكرين ورجال الدين المصلحين في البلاد العربية والإسلامية سعيا وراء استبدال لفظة "الاستعمار" في مدلولها الغربي بما تعبر عن مصداق المفهوم الفرنسي أو الإنجليزي الأصلي. وفي هذا الإطار المنهجي والإيديولوجي، اقترح العلامة فتحي الدريني في كتابه " خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم " استخدام لفظة "البغي" بديلا عن لفظة " الاستعمار " الأجنبية¹³ كون "البغي" يعني التعدي والاستطالة والعدول عن الحق ، ففي تفسير قوله تعالى: ((قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق))¹⁴.

قال الفراء: "البغي" الاستطالة على الناس. وقال الأزهري "البغي": الظلم والقسوة وقصد الفساد¹⁵.

كما اقترح العلامة محمد البشير الإبراهيمي (رحمه الله) في كتابه " عيون البصائر " استعمال لفظ تخريب بدلا من لفظ استعمار إذ لا يصح في اللغة العربية استخدام لفظ استخرا ب¹⁶. لكن العلامة عثمان أمين لم يربأسا في استعمال لفظ استعمار أو استخرا ب عوض " استعمار " وقد وافقه في ذلك العلامة مولود قاسم نايت بلقاسم¹⁷. كما تبني أيضا المفكر فضل الله في كتابيه: " صراع الإسلام ضد الاستكبار العالمي " و "الإسلاميون والتحديات المعاصرة" استخدام مفهوم " الاستكبار " بدلا من مفهوم "الاستعمار"، وهذا من منطلق أن "الاستكبار" لفظ قرآني يعبر عن نفس مضامين كلمة "البغي"¹⁸.

خاتمة

هكذا يبقى النقد العلمي البناء حيا بمراجعتة الدؤوبة، وباقتراحاته الابستمولوجية ، يساهم في عملية تحفيز المزيد من اليقظة الابستمولوجية الأصيلة والمبدعة ، سواء على مستوى ذلك الاستيعاب العلمي والمعرفي للفكر الغربي والعربي الاسلامي، أو على مستوى عمليات التأصيل المنهجي الثقافي والحضاري، إبرازا لخصوصية الثقافة الاسلامية في عملية التحدي والاستجابة العلمية والمعرفية.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة:

- 1- للاستزادة حول هذا الموضوع راجع على سبيل المثال: بن نبي مالك، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، الطبعة الثانية، دمشق، 1986، ص ص 69-98 وانظر أيضا: بن نبي مالك، آفاق جزائرية: للحضارة، للثقافة وللمفهومية، ترجمة الطيب شريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، بدون تاريخ، ص ص 25-30.
- 2- راجع أيضا: بن نبي مالك، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، 1979، ص ص 152-155.
3. Petit Larousse illustré, Librairie Larousse, Paris, 1984, p 221.
4. Collectif, Dictionnaire de politique le présent en question, Librairie Larousse, Paris, 1979, p50.
5. The New Encyclopaedia Britannica, Helen Emingway, Benton publisher, 15th. Ed., Chicago, 1983, p 879.
6. البستاني أفرام بطرس، منجد الطلاب، دار الشروق، الطبعة السبعة والعشرين، بيروت، 1987، ص 498.
7. ابن منظور الإفريقي، لسان العرب المحيط، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، ص 3101.
8. سورة هود/ الآية 61.
9. سورة الروم / الآية 9 .
10. سورة التوبة / الآية 18.
11. نصر محمد عارف، نظريات التنمية السياسية المعاصرة: دراسة نقدية مقارنة في ضوء المنظور الحضاري الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية، الرياض، 1984، ص ص 258-259.
12. للاستزادة حول هذا المفهوم راجع: شريعتي علي، النباهة والاستحمار، ترجمة هادي السيد ياسين، دراسة وتعليق عبد الرزاق الجبران، مراجعة حسين علي شعيب، دار الأمير للثقافة والعلوم، الطبعة الأولى، بيروت، 2004، ص ص 99-124.
13. للاستزادة حول هذه الفكرة راجع: الدريني فتحي، خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، ص ص 217-219.

- 14.الأعراف/ 33.
- 15.للاستزادة حول هذا المعنى انظر: ابن منظور، لسان العرب المحيط، الجزء الثاني، دار المعارف، القاهرة، ب.ت، ص ص 321-323
- 16.الإبراهيمي محمد البشير، عيون البصائر، الشركة الجزائرية للتوزيع والنشر، ب.ت، الجزائر، ص ص 581-582.
- 17.للاستزادة حول هذا المفهوم راجع: مولود قاسم نايت بلقاسم، أصالية أم انفصالية؟، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الأولى، الجزائر، 1991، ص ص 174-187
- 18.للاستزادة حول المفهوم راجع: فضل الله محمد حسين، صراع الإسلام ضد الاستكبار العالمي، لجنة مسجد الإمام الرضا، الطبعة الثانية، بيروت، 1986.